وأعْطَيْنا رَسُولَ اللّهِ مِنّا ... مَوَاثِيقاً على حُسْنِ التّصافِي
فَحُزْنَا بَطْنَ مَكّةَ وامْتَنَعْنَا ... بتَقْوَى اللّهِ والبِيضِ الخِفافِ
وحَلّ عَمُودُنَا حُجُرَاتِ نَجْدٍ ... فَأَلْيَةَ فَالقُدوسَ إلى شَرَافِ
أرادُوا اللاتَ والعُزّى إلَهاً ... كَفَى باللّهِ دُونَ اللاتِ كافِ [1]

على أن « بُرْدة » كعب هي أشهرُ شعره على الإطلاق ، بل هي أشهرُ مدائح الرّسول القديمة كلها . وهنا يَبدر إلى ذهننا هذا السؤال : ما هو سِرُّ إعجاب القدماء والمحدثين بهذه القصيدة ؟ وكيف اهتمّ بها علماء الأدب واللغة ، حتى إن بروكلمان أحصى من شروحها ، ومن بينها شروحٌ بالفارسيّة والتركيّة ، خمسة وثلاثين شرحاً ، ومن تَخْميساتِها ثلاثةَ عشرَ تخْميساً ، وعدداً كبيراً من معارضاتها وترجماتها إلى سائر اللغات .[2] أ ليس من الغريب أن يكون للرّسول ﷺ شعراؤه الذين خاضوا أعنف المعارك دفاعاً عن الإسلام وعن نبيّه ، والذين ملأت أشعارهم دواوين كاملة ، ثم لا يظفرون بمثل حظّ هذه القصيدة التي ليس لكعب من شعره الإسلامي معها إلا ما لا يكاد يُذْكر ؟! وهل لقصيدة كعبٍ من المستوى الفنّيّ ما ليس لِما نعرفهُ من شعر كثير في مديح الرّسول ﷺ ؟

كلُّ هذه أسئلة لا تسهل الإجابةُ عنها ، غير أنه لا بأسَ في أن نطرح بعض التأمُّلات في محاولةٍ لتفسير ما لقيته قصيدة كعب من شهرة وحظوة .

أما من النّاحية الفنّيّة فالقصيدةُ جيّدة بغير شكٍّ ، وكعب يبدو فيها مصوّراً من الطّراز الأوّل ، وهو في تَتبُّعه لأجزاء الصورة واختيار ما يلائمها من ألوان وأصباغ ، يبدو تلميذاً نجيباً لأبيه زهير ، الذي كان يتميّز بمثل هذه الصّفة ، كما يجمعه بأبيه أيضاً دقّته في اختيار الألفاظ والتأنّق البالغ في الصّياغة . وقد

(١) العمود : هو الخِباء الطويل ، ألْيَة والقُدوس وشَراف : مواضع في نجد في ديار مُزَيْنة .
(٢) تاريخ الأدب العربي ، ج ١ ، ص ١٥٦-١٦٢ .